

قصة العبد

أحدث أولئك الناس . رددت هذا القول « أى شعب هذا ، فلولا رؤيا العين لقلت إنها بلد من بلدان العرب الغابرين أيام العصر العباسى الزاهر . أو أيام عظمة بنى أمية . لكن أنى ذلك وقد طوام الزمن وأصبحوا كأن لم يغنوا بالامس » .

كنت يا أخى أردد فى نفسى مثل هذا القول . بين الحين والحين . وخاصة عندما تقدمت إلى بائع لأشترى منه زادا ، بالله إنه يجيبنى عندما ساومته ، نحن قوم

لا نبيع ديننا بدنينا . نحن قوم قانون معاملتنا قول رسولنا الكريم « من غشنا فليس منا » إزداد عجبى

مدينة الأحلام

حينما سمعته يقول هذا — ولكن قلت فى نفسى — أ يكون هذا ونحن فى زمن المسلمون فيه نبذوا أحكام كتابهم وراءهم ظهريا ، وابتعدوا عن أخلاق أجدادهم الأولين ، إن هذه البقية ممن يخافون ربهم . فهو شاذ فى نشأته . والشاذ لا حكم له .

تركته يا أخى وانصرفت إلى غيره ، وغيره ، وغيره فما سمعت إلا كلاما فى معنى ذلك القول وإن اختلف مبناه . وأخيراً أخذت ما أريد وقلت فى نفسى « لولا رؤيا العين وسماع الأذن لقلت : إن هؤلاء من المسلمين الذين صمرت قلوبهم بالإيمان . والذين وصفهم الله بقوله « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »

سرت فى شارع ، وأنا أقلب مثل هذه الخواطر حتى طرق سمعى صوت المؤذن ، فدلقت إلى مسجد قريب منى رأيت جموع الناس تؤمه ، أتيتهم فألقيتهم يفيض بالمصلين . آه يا أخى ليتك تركتني نائما ، لأعيش ولو ساعة فى دنيا الأخلاق ، وفى مدينة العلم وإن كانت مدينة الأحلام .

صليت مع المصلين . وبعد الانتهاء من الصلاة .

اعتدت مساء كل خميس زيارة صديق مروان حيث آنس بمحديثه . وأرتاح لمجالسه ، لتقارب فى الآراء وتشابه فى المشارب ، ذهبت إليه كمادتي ، فما رأيته حتى أنكرت حاله . فسألته ، أحدث شئ بلبل خواطرك؟ فأجابنى مروان بقوله : كلا ، وإنما سوانح دهمتني حيث كنت جالسا فى الحديقة ، أفكر فيما حولى من رذاذ الحياة الاجتماعية وفى السحب الكثيفة التى تظلل سماءها ومن أجل ذاك أشعر بتوزع فى الفكر .

وما كاد مروان يصل فى حديثه إلى هذا . حتى استلقى على كرسيه . وأطرق برأسه ، فصمت بدورى وأخذت أنظر

فى كتاب يصحبنى ، وقد راقتنى بعض فصوله ، واستهوتنى قراءتها مدة ، فاقضيت منها حتى التفت إلى صديق — وكنت غفلت عنه — فوجدته يغط فى نومه ، فرأيت أن أنصرف عنه ، ليأخذ راحته . أيقظته وأنا أهم بالانصراف ، وسرطان ما أخذنى الالبسام حينما فتح عينيه وقال : إلى أين يا أخى . فقلت : إلى البيت حتى تنام ، فلعل ما يثقل رأسك من هم يزول فأجاب مروان لبث قليلا ، فى هذه الغفوة منرى عنى . وليتني بقيت نائما ، اجلس لاقص عليك الحلم الذى كشف عن نفسى غمتها .

فقلت له لك ما تريد يا صاح ، وهات ما عندك . فقال مروان : رأيت نفسى أدخل مدينة لا عهد لى بها ، وقد راعنى ما تحويه من أبنية أنيقة ، وشوارع منسقة ورياض أندلسية ، إن دلت على شئ فانما تدل على مقدار حضارة شعبها وعلو كعبه فى الفن والعلم ، أخذت يا أخى أسير فى شوارعها مذهولا حائرا من تلك المظاهر وأولئك الناس الذين لم أسمع منهم منكر من القول وزورا ، يغدون إلى أعمالهم ويتعاطون حوائجهم فى هدوء ونظام . وبشاشة وعدوبة ألفاظ . وكنت كلما وقع بصرى على شئ من هذه اللغات أو استمعت إلى

جلس شيخ وقور ، ندل ملامحه على تقواه وعلمه . وأخذ يعظ الناس . وقد جعل وعظه يدور حول قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون »

أى كلام قاله ذلك الشيخ ، إنه لقول مورك . له حلاوة وعليه طلاوة . لم أعهد هافى كلام سمعته . وإنه لا يحضرني منه يا صديقي إلا شيء أنقله إليك في معناه ، لا بلفظه . فقد سمعته يقول : المسلمون من صغيرهم إلى كبيرهم ، ومن الحاكم إلى المحكوم مأمورون بأعداد القوة الحربية مهما اختلفت وتنوعت ، والقوة كما إنها مصدر للشر ، مصدر للخير أيضا . لأن كثيرا من الأمم لا تفهم إلا لغتها . ولا تحد من مطامعها إلا إذا رأتها ، والآية كما أنها تأمر صراحة بالاستعداد الحربى . فانها تأمر بالاستعداد للعنوى أيضا . أمرها عام وكل قدر استطاعته وضمن جهوده ، وإنها تدعو المسلمين أن يجعلوا صياح ممالكهم القوة . وحصونها العلم والمال . لأنه ما اجتمع المال والعلم في أمة إلا أنتجا القوة والمهابة . وهذا أسلوب الحياة . فهما تقلبت الأحوال ، واختلفت الدهور . وما هبت ريح للأعداء . ولا لاح في الأفق ما ينذر بالشر إلا رأيت الأمة تعتمص بقوتها حسية كانت أو معنوية ، والاستعداد الحربى يقتضى تعليم العلوم التى توصلنا إلى تلك القوة والعدة

آه يا أخى ، ليتنى وعيت قوله جميعه لأنقله إليك ، فما يحضرني منه إلا هذا . ولقد تركت المسجد بعد أن ترك الشيخ وعظه . على أن يعود إلى موضوعه في اليوم التالى ، نعم خرجت من المسجد والأوهام تساورني وأنا أسير في شوارع هذه المدينة . وما أيقظني من أوهامى إلا بعض جموع رأيتها تقف على طوار الشارع . وإذا برجل تبسّد عليه المهابة وجلال المقام . يسير مع عدد . وقتت كغيرى ولما مر هذا الرجل سألت عنه أحد الواقفين فأجابني بقوله : ذلك أمير المؤمنين — لقد أنكرت منه هذا القول وظننته يسخر — فقلت له

ماذا تقول يا هذا . فهل للمؤمنين اليوم أمير كما كانوا — وكما أنكرت عليه قوله أنكرك بدوره قولى هذا — فأخذ يثبت بصره فى وأطال فى ذلك . ثم قال نعم . للمؤمنين أمير ويظهر من ملاحك — وإن كان لباسك كلباسنا — إنك غريب عن هذه الديار .

لم يزد على هذا وانصرف عني . فبقيت ذاهلا . لا أعى شيئا من حولى . ولا أدرى ما أفعل ، وأخذ يتردد فى ذهنى وأناى يكون للمسلمين أمير . وأوصاهم ممزقة . ودياتهم تكاد لا أثار لها . وهم فى كل ربيع مروعون « سرت فى طريقى ولم يمض وقت حتى رأيت الشخص ذاته . يعود ثانية . فأردت التأكد مرة أخرى فسألت واحداً فأجابني هذا أمير المؤمنين ومضى لشأنه تكاثرت على الخواطر . وأصبت بوجوم شديد ، وكنت أسير على غير هدى . وما زال شأنى هذا حتى وجدتني أقف بجانب قصر له رواء يهر العين ، أتيت بابه فاذا فى ساحته جماعة يتوسطهم ذلك الرجل العظيم . ولبعد المسافة لم أستطع أن أتبين أحاديثهم ، لكنّها أشبه بأحاديث اناس فى مناظرات . ومجادلات علمية . وبيننا أنا واقف على هذه الحال ، ربي رجل فسألت عن هذا القصر ؟ ومن هؤلاء الجالسون فى الفناء . فأجابني الرجل . هذا قصر لأمر المؤمنين وهؤلاء علماء وأدباء يتناظرون أمامه حيث اعتاد الأمير عصر كل يوم من مثل يومنا هذا إقامة مثل هذه المجادلات والحلقات العلمية الأدبية .

وما أنهى الرجل قوله هذا حتى قال أراك تضحك وتمعن فيه . وأنا أخبرتك عما سألت . فما الذى دهاك إلى هذا ؟

فقلت له : يا أخى أين نحن من حقيقة الحال وأمر الواقع إن ما ذكرته نسخ بنسخ الزمن ، فأينما يضحك من الآخر ، ولم أتم جملى حتى رأيت عينيه تنقلبان فى أم رأسه جرتين وقال — وهو يتميز من الغيظ ويزيد ويحك ماذا تقول ؟ أبك مس من الشيطان ؟ أنكرك الحقيقة المجردة ؟ كيف تنكر ما أقوله . وقصر الأمير أمامك ومجلسه معقود والمناظرات العلمية على أشدها .